الهبة اربع مئة فدان عوض المئة فاستغرق هذا الوعد شكر الحاضرين وطيروا نبأهُ بالبرق الى الاسكندرية . انتهى

ونحن لا نزيد في الشكر على ما جآء في هذين الكتابين البليغين سوى اننا نسأل الله ان يجعل هذا الرجل العظيم قدوةً لسائر الاغنيآء في القطر فان المنشاوي ليس باغناهم ولكنهُ اكرمهم جزاهُ الله افضل ما جزى بهِ اهل الاحسان والهمهُ المزيد من كل ما يجلب لهُ جميل الذكر وجزيل الشكران

آثار ادبيّة

كتاب البؤسآء — لم يصل الينا هذا الكتاب الاّ منذ ايام قلائل لسببٍ لعلهُ لم يكن الا الاتفاق بحيث قُضي علينا ان نكون آخر من تكلم عليهِ من الكتّاب وان لا نقول كلمتنا فيهِ الاّ بعد ان طفحت الجرائد بوصفهِ وتقريظهِ وبعد ان نضب مَعين الكلام ولم يبقَ للمتأخر الا ان ينسخ كلام من تقدمهُ او يؤمّن عليهِ

على ان الكتاب غنيٌّ بنفسهِ عن التقريظ والاطرآء فان كتاباً وضعهُ فكتور هُوجُوّ امير شعرآء الفرنسيس واكتب كتابهم في العصر الغابر وعرّبهُ الشاعر الناثر حافظ افندي ابراهيم نابغة العرب في العصر الحاضر لحريٌّ بان يكون مجمع الابداع وغاية الغايات في صناعة الفكر ووشي اليراع

ولقد تصفحنا اكثرهُ فوجدنا فيهِ من جزالة الالفاظ ومتانة التراكيب وحسن السبك والقدرة على التصرف في تمثيل المعاني ما لو كان الكتاب موضوعاً من عند المعرّب لم يأت فيهِ بافصح منهُ ولا احكم وضعاً وارسخ بناءً.

على انهُ لم يتمّ لهُ ذلك حتى تصرّف في قالب التأليف الاصلي واهمل منهُ اعتبار الالفاظ واخذ المعاني مجرّدةً فألبسها العبارة اللائقة بها وهذا ولا جرم احد مذهبين قديمين في التعريب ذكرهما الصلاح الصفدي ونحن نأتي هنا على جملة كلامهِ لما فيهِ من الفائدة قال

« والترجمة في النقل طريقان احدهما طريق يوحنا بن البطريق وابن الناعمة الحمصي وغيرهما وهو ان ينظر الى كل كلمةٍ مفردة من الكلمات اليونانية وما تدلّ عليهِ من المعنى فيأتي بلفظة مفردة من الكلمات العربية ترادفها في الدلالة على ذلك المعنى فيثبتها وينتقل الى الاخرى كذلك حتى يأتي على جملة ما يريد تعريبهُ . وهذه الطريقة رديئة لوجهين احدهما انهُ لا يوجد في الكلمات العربية كلمات تقابل جميع كلمات اليونانية ولهذا وقع في خلال هذا التعريب كثيرٌ من الالفاظ اليونانية على حالها . الثاني ان خواص التركيب والنسب الاسنادية لا تطابق نظيرها من لغة اخرى دائماً وايضاً يقع الخلل من جهة استعمال المجازات وهي كثيرة في جميع اللغات . الطريق الثاني في التعريب طريق حنين بن اسحق والجوهري وغيرهما وهو ان يأتي الجملة فيحصّل معناها في ذهنهِ ويعبر عنها من اللغة الاخرى بجملةٍ تطابقها سواءٌ ساوت الالفاظ ام خالفتها . وهذا الطريق اجود ولهذا لم تحتج كتب حنين بن اسحق الى تهذيب الا في العلوم الرياضية لانهُ لم يكن قيّماً بها بخلاف كتب الطب والمنطق والطبيعي والالهي فان الذي عرّبهُ منها لم يحتج الى اصلاح . » انتهى

قلنا لكن بقي ان لكل قومٍ اصطلاحاتٍ خاصة في المأكل والمشرب والمفرش والملبس واشياء مما تقتضيهِ حالة الاجتماع وآداب المعاشرة مما تتباين فيهِ اللغات بتباين اهلها وليس كل ما عند قومٍ يمكن التعبير عنهُ بلغة غيرهم ولاسيما اذا اتسعت مسافة التفاوت بين اهل لغةٍ ولغة كما هي الحال اليوم بيننا وبين امم الغرب ومن اين للشرقيّ ان يعبّر عن كل ما ينطق بهِ

الغربيّ وثَمَّ أشيآء لم يرَها قطّ ولم تتمثل لذهنهِ ولا لفظ لها في لسانهِ ولا شيء يقاربها في مصطلح قومهِ وهذه هي العقبة العظمى في الترجمة والتي يرجع المعرّب من دونها حاسر الطرف فيضطرّ ان يخترع لتلك المعاني قوالب من عندهِ يلجأ فيها تارةً الى المجاز وطوراً الى الاشتقاق وربما حاول التعبير عن المعنى بما يفيد المقصود منهُ لا بما يصوّرهُ بعينهِ وفي كل ذلك من العنآء وكدّ الفكر ما لا يكثر معهُ ان يسلخ مثل معرّب البؤسآء اثني عشر هلالاً في تعريب هذا الجزء منهُ على ما ذكرهُ في صدر الكتاب . على ان هذا ايضاً قد يعزّ على المعرّب مهما اتسع صدرهُ في اللغة وطال باعهُ في اساليب التعبير فيضطرّ اما ان يُنزل تلك المعاني في غير منازلها فيتشوه رونق الكتاب ويذهب ما فيهِ من مسحة الفصاحة واما ان يهملها رأساً اذا وجد الى ذلك مساغاً وهذا ولا ريب ما وقع لمعرّب هـذا الكتاب وهو فيما نظنهُ السبب في اختزال بعض فصولهِ واختصار بعض التفاصيل الواردة فيهِ مما اخذهُ عليهِ بعض المنتقدين

اما لغة الكتاب فهي في النهاية من البلاغة وحسن الترصيف ولا سيما الصفحات الأُوَل من المقدّمة وما يليها وهي التي كان المعرّب فيها مالكاً عنان قلمهِ يصرّفهُ بوحي فكرهِ فيجري حرًّا مطلقاً لا ينساق الا حيث يسوقهُ وجدانهُ ولا يرسم الا ما يرتسم في مخيّلتهِ فترى الكلام منسجماً متدامج الفِقَر لا يعترضهُ تكلف ولا تعسف ولا يرجع المطالع فيهِ على عبارةٍ قرأها. واذا قابلت الكلام هناك بشيءٍ مما وراء ذلك كصفحة ٢٠ مثلاً وجدت المعرّب على غير ما عهدتهُ في المقدّمة وظهر لك من خلال كلامهِ اثر كدّ

القريحة واعنات الرويّة ورأيت بعض الجمل مستكرَهة على اماكنها وسِلك المعنى ينقطع مرةً وينعقد اخرى . على ان هذا لا يُرَى الا في مواضع قليلة من الكتاب وسببهُ ان المعاني ليست من بنات فكر الكاتب فربما لم يستمرئها ذوقهُ فمضى في تصويرها على تكلف وكراهة . ثم اذا جاوزت هذا الموضع فنظرت في صفحة ٣٣ مثلاً والصفحتين بعدها رأيت الكاتب قد استأنف ارتياحهُ وعاد قلمهُ الى مثل جريهِ الاول ورأيت الكلام متراصفاً يساوق بعضهُ بعضاً على غير تكلُّفٍ ولا تعمُّل . على انهُ يقال على الجملة ان الفصل الثاني وهو المعنون بفانتين احسن تنسيقاً واقلّ تفاوتاً من الفصل الاول فهو بكلام المعرّب الذي في المقدمة اشبه حتى لا تكاد ترى فيهِ ما يُشتمّ منهُ رائحة التعريب وكانهُ باسرهِ من املاء مخيّلتهِ ونتاج فكرهِ

على أنّا لا نبرّئ المعرّب من التكلف في استعمال بعض الالفاظ والتراكيب مما كان لهُ مندوحةٌ عنهُ بغيران تنزل طبقة كلامهِ . وذلك مثل قولهِ في صفحة ٢١ « يشيّعون ذلك الطريد بنظراتٍ يُقعِد همة الفوتوغرافيا تصوير ما فيها من الاستخفاف » اي تعجز الفوتوغرافيا عن تصوير ذلك الاستخفاف فجعل للفوتوغرافيا همةً وهي استعارةٌ غير مرضيّة لما فيها من البعد عن المطبوع . وقريبٌ منهُ في صفحة ٢٣ « وكاني اسمع صوتاً يقطر منهُ الدم » وقَطَران الدم من الصوت مما لا تأنس بهِ الافهام . وفي صفحة ٤٧ « كان القمر منذ زمنٍ لا يتعدى شطر ساعةٍ مقنّعاً بغمامة » اي كان منذ نصف ساعة . وفي صفحة ٧٥ « فخرجت ربة النزل بالصمت عن لا ونعم » اي لم تقل لا ولا نعم . ومن هذا القبيل في صفحة ٣١

« أحملُ لهُ ضَبّ الضِغن » على ان الضبّ والضغن شيء واحد وكلاهما بمعنى الحقد . وفي صفحة ٥٣ « القى الشرق في شعر رأسهِ سلوكاً ذهبية » وفسر الشرق بالشمس . وفي صفحة ١٢١ « وفعل شرواهم » اي مثلهم . وفي صفحة ١٤١ « فأخذت مادلين الارض » وفسر الارض بالرعدة فما ضرّ لو استعمل في هذه الالفاظ كلها مرادفاتها من المأنوس

وربما تسامح في بعض الالفاظ الشائعة فاثبتها من غير ان يستثبتها من كتب اللغة وذلك كاستعمالهِ البرهة (ص ٤٠) للزمن القصير . وباهت اللون (ص ٩٨) بمعنى كَمِدهِ . وتبقّى عليهِ كذا (ص ١٠٥) اي بقي . والنجمة (ص ١١٢) للنجم . ويلحق بهذا مثل قولهِ (ص ١٤٠) « لمحتُ باحد نخذيك فَدَعاً » والفدع يكون في القدم لا في الفخذ وهو ان يعوجّ الرُسغ حتى تنقلب القدم الى إنسيّها وقيل هو ان يمشي على ظهر القدم . ونظن ان المقصود هنا اعوجاج عظم الفخذ وهو من المعاني التي لم يوضع لها لفظٌ في اللغة لانهُ ليس من الاحوال التي تقع عادةً ولو اتفق لنا ان نعبّر عنهُ لما جاوزنا لفظ الاعوجاج او ما في معناهُ . وقولهِ (ص ١٨) « صعّر الجنديّ خدّهُ » وفسرهُ بقولهِ « شمخ بانفهِ وتكبر » وما ننكر ان تصعير الخدّ اي امالتهُ قد يكون كناية عن الكبر ولكن تفسيرهُ بما ذُكر بعيد ومثل هذا انما يجوز في سياقة المترادفات ولا يصلح للتفسير اللغوي . ومثلهُ في الصفحة المذكورة تفسير تبلّغ باكل الخبز والتبلُّغ في اللغة بمعنى الاكتفآء بالقوت اليسير . وفي صفحة ٩٤ « ان يعمد الى لفيفة من الطبّاق » وفسر الطبّاق بانهُ المعروف الآن بالدخان او التنباك » قلنا وكان هذا حسناً لو ساعدتهُ

نصوص اللغة لمجانستهِ اللفظ الاعجمي الموضوع لهذا النبات ولكن الذي في كتب اللغة وكتب المفردات الدوائية انهُ اسمٌ لنباتٍ آخر لا ينطبق وصفهُ على هذين النوعين

وربما وقع لهُ غير ذلك كقولهِ في صفحة ٥٦ « ألم تعثر في طريقك ايها الراهب بغلام » والمنصوص عليهِ في هذا المعنى عثر عليهِ لا بهِ . وفي صفحة ٧٥ « عوّلت على مغادرة ابنتي » اي اجمعت وصممت وليس هذا معنى اللفظة ولكن يقال عوّل عليهِ بمعنى اتكل . وفي صفحة ١١٠ « بقيت تقضقض من البرد » اي تقفقف ولم يجئ قضقض بهذا المعنى

وقد بقيت هناك اشياء أُخر لم نتعرض لها اجتزاءً بما ذُكر وهو كافٍ لتنبيه حضرة المعرّب الى تدارك امثال هذه الهفوات فيما بقي من الكتاب والرجوع على ما طُبع منهُ بمثل ذلك ان احبّ . وما فعلنا الا ونحن على يقين من الشهرة التي سينالها هذا الكتاب بين طلاب الادب ومزاولي الانشاء فهو جديرٌ بان ينزّه عن كل ما يعترض الثقة بهِ والاسترسال اليهِ وهذا ما دعانا الى تكلف نقدهِ على قلة رغبتنا في النقد مع كثرة المطبوعات في هذه الايام وما هو معلومٌ من حالها في الركاكة والخطاء

وفي الختام فانّا نهنئ حضرة صديقنا الفاضل بما احرزهُ من الحظ الكبير في هذه اللغة الشريفة كما نهنئ اللغة بما اوتيت على يدهِ من الحياة الجديدة بعد ما اوشكت ان تلفظ آخر انفاسها وفي يقيننا انها اذا رُزقت من بنيها من يقتفي اثرهُ في تجديد رونقها فلا نلبث ان نراها قد نفضت عنها ثوب الهرم واستعادت ماضي شبابها وما ذلك عليهم اذا شاءوا ببعيد